جنة الشوك (*)

لوّهنا بهذا الكتاب في عدد المقتطف السابق ووعدنا بنقده وتقديره التقدير اللائق به وبمؤلفه . والحقيقة ان الكتاب نسيج وحده بين الكتب التي ظهرت في العهد الأخير . أما من حيث الاسلوب فهو أسلوب الدكتور طه حسين حيث ينطلق بعض الأحيان انطلاق السهم إذا صدر عن عقيدة ، فان صدر عن تعمل تعثر ومشى يترنح ذات اليمين مرة وذات اليسار مرة ، فيشعرك بأنه يتعمل وأنه يريد أن يصل الى غرض يحاول أن يخفيه محاذراً أن يُسبين ، يقطّع لثلاً تنم عن غرضه كلة أو عبارة ، فاذا اجتاز هذه المرحلة الشاقة للعبرة التي قد تشعرك أن أنفاسه كادت تنقطع فيها ، انطلق مرة أخرى انطلاق السهم ، فهو يفرض على نفسه هذه العبودية بعض الزمن ، حتى إذا ضاق بها ذرعاً خانته الارادة وضاق صدره بما فرض على نفسه من تلك القيود ، فانفجر كأنما هو حبيس انفرجت عن نفسه أعواد حديدية كانت تكبت مشاعرها وأهواءها ، فراح يمرح في رحاب الحرية ، فلا يلبث أن يظهرك على ما حاول أن يخفي في نفسه ، والطبع مبديه .

وليس هذا الكتاب نسيجاً وحده بين الكتب التي ظهرت في العهد الأخير ، بل هو نسيج وحده بين كتب الدكتور طه حسين . فهو من حيث أنه أدب شيء جديد ، ومن حيث أنه سياسة أسلوب رمزي يغشى عليه الغموض وتضارب المعاني بعض الأحيان ، ويفلت منه زمام الرمزية أحياناً أخرى فيظهر مكشوفاً مفضوح الأغراض . ومن حيث أنه تهكم سبيل قد يقود بعض الشباب أو الكثير منهم ، وهم الذين يتطلعهم المؤلف في المقدمة ، الى مزالق وعرة وإلى اتجاهات خلقية أراد المؤلف أن يحاربها فلم تمكنه الرمزية التي ساق فيها عباراته من اظهار غرضه ، فساق القول بحيث يظهر أنه يؤيد الناحية التي حاول أن ينفيها ، والقادرون من شباب هذا الجيل على استخلاص المعاني المستترة قلائل ، بعد أن غمرتهم موجات الأدب الأصفر المعروف . ومن حيث انه اجتماع فيه دعوة قوية الى الاشتراكية وتوقع الفوارات

(*) من مطبوعات دار المعارف للطباعة والنشر تأليف الدكتور طه حسين ٢١٦ صفحة من القطع الصغير

المحطة . ومن حيث أنه خطة فيه بشارة سافرة بحرب الطبقات . ومن حيث انه عجاء وجرجة في بعض المواضع كأنه الزئبق ، وصارم صافي الحديدة كأنه الشعاع في مواضع أخرى . وجرجة اذا حاول ان يساوم ، وصارم إذا أراد أن يبيع بيع السماح .

***

أما ناحية الادب في هذا الكتاب فلا تخرج عن أنها تجديد في الصورة والوضع . أما الاسلوب فشائع عند العامة في أمثالهم وأقوالهم واشاراتهم الخفية ، إذا أرادوا أن يتمضوا ولا يبينوا . ويكفي أن يوفق الأديب الى الابتكار في الصورة وفي الوضع . فان هذا في الواقع هو الابتكار بعينه . أما القول بأن الابتكار خلق من العدم فإفراط هو في الحقيقة بُعد عن كل انصاف.

أنظر كيف يقول في السياسة : أن فلاناً يطلب الجلاء السريع بعد الحرب ، وانه يطلب هذا حتى يلي الحكم أو يشارك فيه (ص ٦٣) السياسة عندنا يكثرون عند الطمع ويقلون عند الفزع (ص ٦٥) فضرورات أحكامها ، والرجوع الى الباطل أنفع وأجدى من التمادي في الحق ص (٨٩) لم تستند عظائم الامور الى قوم لا يعقلونها ، ولا يقدرون على النهوض بها ، ولا بأيسر منها ؟ لان السياسة كالطبيعة لها حكمة لم تستطع عقول الناس أن تفهم حقائقها بعد (ص ١٠٣) أيُّ وعود الرجال أشبه بوعود النساء ؟ وعود الساسة حين يطلبون النيابة عن الشعب ، أو النهوض بأعباء الحكم (ص ١٢٨) . قال لبيد (ص ١٥٣) .

ذهب الذين يُعاش في أكنافهم وبقيت في خَلْفٍ كجلد الأجرب

قال من يرمز المؤلف ؟ من الذين ذهبوا وكان يعاش في أكنافهم ، ومن الذين بقوا وهم كجلد الأجرب ؟ لا ندري ! فقد تقلب المؤلف بين جميع الأحزاب السياسية عملاً بحكمته (الضرورات تبيح المحظورات : ص ٣٤) .

تخيل المؤلف رئيس عصابة فرّق أصحابه للسُّطو فعاد كل منهم بحصة تختلف عن حصة صاحبه من المسروقات ، وأراد أصحاب القلة أن يساووا أصحاب الكثرة في القسمة ، وهمّ اللصوص أن يجادلوا الرئيس ، فاضطرهم الى الصمت والاذعان ، لانه أنذرهم بأن يرفع أمرهم وأمره الى الشرطة (ص ١٦٥) .... ندرك هنا أن الشرطة مرموز بها إلى الشعب المسروق ، أما من هم اللصوص ؟ فالمؤلف ولا ذلك أعرف الناس بهم . أهم القلة والكثرة جميعاً ؟

فلان يتملق حزب الكثرة وحزب القلة جميعاً ! لماذا ؟ لأنه يحتاج إلى الحزبين ، ولأن الحزبين يحتاجان اليه (ص ١٨٨) فمن هو ذا ؟ تخيل ، ولنا الحق أن نتخيل ، أنه كاتب

يتصل بالعوام أما الاسم فمند رمزية الأستاذ المؤلف ، وهو بالطبع أعرف الناس به أيضاً .

اترك السياسة وانظره كيف يقول في التهكم : أدبتنا الحياة بأن الغم عورات تبيح المحظورات (ص ٣٤) ونحن لا ندري أي ضرب من ضروب الحياة أدبنا هذا الأدب الا حياة الوصولية والانتهازية . وهو ضرب من الأخلاق أجاد المؤلف وصفه في الكتاب كأنه به خبير .

وتب فلان أمس من أقصى اليمين إلى أقصى الشمال . لماذا ؟ لأنه يئس من رضا الحكام فابتغى رضا الشعب ! ذلك بالرغم من أنه يقال لا معنى لليأس مع الحياة ولا معنى للحياة مع اليأس ! فان سُدَّت له أسباب الحياة ودعاه الأمل إلى اليمين ، فوثبة أخرى تردُّه من رضا الحكام إلى ما يريد . وما دام الانسان قادراً على أن يذهب ويجيء ، فلا جناح عليه في أن يذهب ويجيء . أما اليأس فوسيلة لا غاية (ص ٦٤) ..... وفي هذا عبارة تدل على أنه يسمي شخصاً أو أشخاصاً من الحزب الوطني ، وأكبر الظن أن عنه حسين آخر من ينبغي له أن يحملق في هؤلاء .

الحياة قد علمتنا أن الضرورات تبيح المحظورات . ومن المحظورات أن تجهر من جفاء السلطان . فقد تصدُّك صلته عن بعض ما تحب ، وتصرف عنك بعض ما تتمنَّى (ص ٧٤) ويقول إن طريق الرقي في مناسب الدولة إسداء الثناء إلى غير الأكفاء ، وإهداء الحياء إلى ذوي الغَشَاء ، وفشو المحصنات والخوض في الأعراض بغير الحق (ولست أدري متى كان الخوض في الأعراض حقاً) وجفوة الصديق وخيانة الخليل (ص ١٠٢) . فرأيت بما قرأت من شعر كاتول (شاعر روماني ومعنى اسمه الحقيقي قاطُلُس) مقطوعة يهيِّئ فيها نفسه للموت ، بل يحث فيها نفسه على الموت ، لأن فلاناً وفلاناً من مواطنيه قد رُقِّيا إلى منصب القنصل . فأعجبني سخريته اللاذعة ، كما أعجبني قول الشاعر العربي .

تأهَّبْ لحَدَثٍ النازل قد قُرِيء الشعر على كامِل (ص ١٤٢)

وكامِلٌ هذا ، على ما يظهر ، إنسان أنعم عليه برتبة ومنصب سامي خطير . فعد المؤلف هذا حدثاً نازلاً ينبغي أن يتأهب الناس لدفعه ، لأن كاملاً ، إذ أصبح متصرفاً ، فهي ذلك ضياع لفهمي وفهم المؤلف وفهم الناس . ولا شك أن ذلك يكون من « سقطات الكبار » كما يقول بشار

إذا صُرف فلان عن السلطان أطلق لسانه بالشر في الناس جميعاً . فاذا وُلِّيَ اليه أطلق

لسانه بالثناء على الناس جميعاً . لأنه يسخط فلا يقول إلا شراً ، ويرضى فلا يقول إلا خيراً ، وقد جعل بينه وبين خير الأمور ، وخير الأمور أوسطها (ص ١٧٥) ..... وهذا الضرب من التهكم غث ولا قيمة . فإن خصمه إنك إذا توسطت في القدح والثناء ، بحق وبغير حق بالضرورة ، كنت في خير الأمور . وليس في هذا خير على إطلاق القول . ومن هذا وأمثاله مما نقلنا عن الكتاب ، نرى أن ناحية التهكم فيه مضت في صورة تصالح خطيرة النتائج شديدة الأثر في الأخلاق .

وفي الكتاب نزعة اشتراكية وتوقيع لخطوب اجتماعية جسام وفورات عطفة تحرق الأخضر واليابس وتأتي على النائم والقائم . يقول : أعرف أوعية لا تمتلئ وآنية لا تفيض ، هي خزائن الأغنياء وعقول العلماء وجهنم ! ولكن أناة واحداً قد يفيض فيصبح مضرباً للأمثال ، ومصدراً للعبر وبعيد الأثر في حياة الأجيال . ألا تذكر سيل العرم (ص ٣٠/٣١) أما السيل فهو الشعب الثائر ، وأما العرم فقوة الثورة الاجتماعية المحطمة .

قال المتنبي :

نامت نواطير مصر عن ثعالبها ... فقد بشمن وما تفنى العناقيد

نامت نواطير مصر عن ثعالبها ، وما زالت هذه الثعالب تأكل وتشرب حتى يدركها البشم فلا يزيدها إلا نهماً ، كأن بطونها تلك الآنية التي أشارت إليها الأساطير اليونانية والتي ليس إلى ملئها سبيل . أما النواطير فقل المتنبي عما أراد بها . أما أنا فأفهم منها الشعب ، وأظنك لا تنكر أن الشعب ما زال نائماً بل غل أن الشعب يتظاهر نائماً . يتظاهر لأنه يعمل ويفتح ، ويتم لأنه لا يجني ثمار عمله من هذه الثعالب (ص ١٣٦) ..... وفي هذا تصوير رائع لتجاهل الشعب ، كأنما هو يقول أيها النواطير (التي هي الشعب) تهجي الثعالب التي تنهشنا ، وتريحنا من ثمراتنا . وإذا أردت المزيد من هذا فانظر ص ١٩٤ و ١٩٥ و ١٩٦ و ١٩٧ . ولكن إذا أردت أن تلمس الدعوة إلى أشياء وأشياء فاقرأ ما كتب تحت عنوان « رعشة » (ص ٩٣) أن الشعب سيد نفسه وأنه مصدر السلطات (حسن) وأنه بذلك هو الراعي وهو الرعشة (أحسن) بذلك بحيدته الدستور ، وهو إن لم يصدق الدستور اليوم ، فقد يصدق غداً . واقرأ في (ص ١٩٤) : ما دام في الأرض سادة يتحكمون مئات الألوف ، وخدم لا يملكون شيئاً وفرص للهو ينفق فيها المال ، فكل العصور واحدة وإن طال الزمن .

وفي الكتاب هجاء ينتقد المؤلف أنه أحد فنون الأدب ملائمة لعصر الانتقال الذي نحن فيه (ونعمى أن لا يضيق بالهجاء ذرعاً إذا كان صادق العقيدة في ذلك) .

ومن أمثلة الهجاء أن فلاناً يرى نفسه ساكناً بالطبع (ص ٧٩) ، والصورة المختارة من المثقفين

تكرم كاتباً يحسن الخطأ أكثر مما يحسن الصواب (ص ٨٥) فلان قاطع الناس غير واحد منهم ، فلعله ينتظر منه نفعاً فهو يسايقيه حتى يبلغ آخر ما عنده ، ثم يلحق بالآخرين (ص ١١٦) ؛ عصر الانتقال : أشد فنون الأدب له ملاءمة في نفحاته (ص ١٢٥) ، من الوزراء من يتخذون زينة (ص ١٢٧) ويقصد المؤلف انهم كالأشياء الأنيقة وإصص الزهور والخزف القديم مثلاً . فلان يخلّط في كتابه عن حياة النبي (صلعم) تخليطاً شديداً ، لأنه عرض لما لا يحسن من الأمر ، وقال فيه بغير علم (١٣٠) ولعله يرمز الى صديق قديم قارضه الثناء ، أو بالحري انهما تقارضا الثناء على صفحات الجرائد زمناً ، فلما وصلا تدابرا ، ولم يبق أحدهما إلا صاحبه عندما فرغت الجعبة ، وقول المؤلف في عبارة « نفع » ص ١١٦ خير ما يقرأ ختاماً لصداقتهما ، وانظر قوله : شعب يجري أمره على جهل الشباب وطيشهم من جهة ، وعلى ضعف الشيوخ وحقهم من جهة أخرى ، هو شعب ناهض يسعى الى المجد بخطر سريع !! (ص ١٥٦) أما المؤلف فليس من الشباب وليس من الشيوخ ، فهو الذي يقول «أنا» إذا سأل سائل : « أليس منكم رجل رشيد ؟ » يرمز بنفسه بقوله عليه السلام

وقد يتفق للمؤلف ان يحاول رسم صورة لشخص فيزل ، وإذا به يصور نفسه . . وإذا شئت من ذلك شيئاً فاقرأ «وصول» (ص ٣٧) ، واقرأ «غيره» ص (٩٥) ، فان المؤلف في هذه المقطوعة «خاصّة» قد نمّ عن نفسه بجلاء . فانها تدل على انفعال ذاتي ، لا انفعال موضوعي . والانفعال الموضوعي انفعال يقوم برواية أو خبر تتلقاه ، أما الذاتي فهو ذلك الذي يصوره المؤلف . ودليلنا على ذلك كما أسلفنا مقطوعة «وصول» ص ٣٧ واليك هي :

« لم يكن شيئاً ثم ارتقى حتى صار شيئاً مذكوراً . وقد سلك في تصعيده من الحضيض إلى القمة طريقاً وعرة ملتوية ، يضمرها ضوء الشمس من وراء نقاب من السحاب أحياناً أخرى ، ويحجبها ظلام قاتم فاحم في كثير من أجزائها . فلما ارتقى الى القمة واطمأنّ في مكانه منها ، نسي ماضيه كله ، وأعرض عن مستقبله كله ، وعاش ليومه الذي هو فيه » .

« نسي الماضي فلم يتعظ ، وأعرض عن المستقبل فلم يتحفّظ ، ومضى مع هواه طاغياً باغياً ، حتى أخاف الناس من نفسه ، وأخاف نفسه من الناس ، فلم يأمن إلى أحد ، وإذا هو مضطر الى أن يظهر الحب لقوم يبغضهم أشد البغض ، وإذا الناس من حوله مضطرون إلى أن يظهروا له حبّاً متهالكاً وليضمروا له بُغضاً مهلكاً . واذا الأسباب بينه وبين الناس ترثّ ، حتى ان أيسر الأمر ليتهي بها الى الانقطاع » .

«قال الفتى لاستاذه : لقد سمعت منك ، ولكني لم أفهم عنك ، وإنك لتحدثني بالألغاز منذ حين ، فماذا تعني وإلامَ تريد ؟

« قال الشيخ : إن حب الاستطلاع إن تمم في بعض الوقت فقد يضر في بعضه الآخر ، وما عليك أن تفهم شيئاً وتغيب عنك أشياء ! إنما هي مَرَايا تُنْصَب للناس ، فينظر فيها من يشاء ، وليُعْرِض عنها من يشاء . وربما كان الإعراض عنها خيراً من النظر فيها . فقد ينظر فيها من يحب الاستطلاع مثلك فيسوءه ما يرى ، لأنه يرى نفسه » . انتهى « وصول »

قال دمنة : كان صاحب هذه الصورة حرًّا دستوريًّا ، فشنَّ غارة شعواء على سعد وصحبه من الوفديين في جريدة اسمها « مصر » ، وأخذ الدستوريون يؤيدونه ، حتى إن رئيس وزارة منهم أحدث أزمة سياسية أمام مجلس النواب ، فارتقى بذلك بعض الدَّرج وصَعَّدَ في طريق وعرة ملتوية ، فلما علم أنه تسنم أعلى ما يمكن أن يصعدوه من الدرجات ، انكفأ إلى أصحاب سعد من الوفديين ، وشنَّ غارته الشعواء على الدستوريين عند ما شعر بأنه ليس لديهم درجات يصعدها ، وأمعن في ذلك حتى لقد همَّ بأن يظعن أحدهم ، وهو له أستاذ وكفيل وناصح ، عند ما استقال من الجامعة احتجاجاً على وزارة أرادت أن تسلب استقلال الجامعة ، فارتقى بذلك بعض الدَّرج وصعَّد في طريق وعرة ملتوية . استغفر الله ، انه لم يهم فقط بظعن أستاذه وكفيله ، بل لقد ظعنه بالفعل . ثم ارتد الى الاحرار الدستوريين بعض الزمن لما وجد عندهم درجات يصعِّد فيها ، ثم رجع إلى أنصار سعد ، لما فرغت درجات أصحابه الأوَّلين .

ما هذه المرآة ؟ هي إحدى المَرَايا التي يطل فيها المؤلف ، فيرى صورة نفسه . وما هو الحافز المستتر وراء هذا التقاضي المتبادل بين الناحيتين ، ناحية حزب الكثرة وحزب القلة جميعاً ، وفلان هذا ؟ الحافز أنه يحتاج الى الحزبين ، وأن الحزبين يحتاجان إليه (ص ١٨٨) ها هو ذا مفتاح نفسه . أستغفر الله ثانية ، بل وقفل نفسه أيضاً .

وفي الكتاب مواضع للنقد من حيث الاسلوب ومن حيث التفكير . أما في مجموعه فعمل أدبي يحفز الى تحريك الفكر . وجدير بجهد أدبي يحرك الفكر ، ان يكون له اثره الثابت في الحياة .

جملة القول أن طه حسين قد أعطى بذلك الكتاب مفتاح نفسه ، فاقرأه فيه رمزاً وحقيقة ، وأبين ما تقرأه فيه إذا ضاق صدره بالرموز ، فانه حينذاك يُسْفر ، فتتضح ملامحه . ولله الحمد فقد عرفنا انه اشتراكي ولم نكن نعرف ذلك ، وعرفنا انه يعتقد أن الطعن أدب عصور الانتقال .

الماء

الماء هو العنصر الثاني الضروري للحياة بعد الهواء . فالانسان يستطيع أن يبقى بدون طعام عدة أيام ، ولكنه لا يمكنه أن يبقى في الحياة بغير الماء إلا ساعات معدودات .

وقال الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز الكريم « وجعلنا من الماء كل شيء حي » لأن حوالي ٨٠ ٪ من تركيب الكائنات الحية على اختلاف أنواعها يتكون منه . والانسان أول هذه الكائنات ، فانه يكون الجزء الأكبر من تركيب أنسجته ودمه وافرازات غدده المختلفة .

والماء الجسم يستعمل دائما في اتمام وظائفه الفسيولوجية . فهو يخرج من الجلد عرقا ، ومن الكليتين بولا ، ومن الرئتين بخار ماء ، ومن الغدد افرازات مختلفة ، كما انه يستعمل في عمليات الهضم من بدء افراز اللعاب على الطعام ، الى التمثيل الغذائي ، ثم نقل الدم والغذاء لأنسجة الجسم المختلفة ، وأيضا في عملية اخراج فضلات الطعام .

ويقتضي أن يعوض هذا الماء المستعمل في وظائف الجسم ، وإلا نقصت نسبة الماء به ، فتتعطل وظائفه الحيوية ، أو تقوم على وجه ناقص مبتور ، يترتب عليه ضعف الجسم في أجهزته المختلفة . وما الجسم الذي لا يمد بحاجته من الماء ، إلا كغربة جافة يفنيها الوقاد .

وثمة كثيرة من الناس لا يعدون حسابها للماء الضروري لها . فهم يعون بقدر الدم ، لأن نقص الماء معناه قلة الدم ، كما يعنون بالامساك لأن الامساك سببه الاحتياج الى الماء ، ولكنهم أنواعهم وتضعف أعصابهم ، وتنبعث من أفواههم رائحة كريهة . وتتأثر الرئات فتدوم الجيوبة كالالتهاب والمرارة والبنكرياس والعصارة الصفراوية وغيرها . ويحتاج الانسان الى ثمانية كوباً من الماء كل يوم على الأقل ليعوض ما يفقده الجسم في اتمام وظائفه المختلفة . والماء أعظم منقي للدم ، وهو يمنع تراكم المواد الضارة بالقولون ، ويحفظ الجهاز الهضمي وكذا الأجهزة الأخرى من الجسم صحيحة نظيفة ، مما يكسبها مناعة ضد تلك الجراثيم وسمومها .

« فاشرب الماء بشره ولا تأكل بشره » وهذا نصح كريم من به الرسول صلوات الله عليه في حديث شريف له . وغير نظام شرب الماء أن تتبع فيه الطريقة الآتية : —

١ — بعد الاستيقاظ من النوم صباحاً اشرب بقدر ما تستطيع بعد أن تغسل أسنانك .

٢ — لا تشرب على الأكل ، حتى لا تسهل طعامك ، ولكن بعده بثلاث ساعات اشرب ما شئت من الماء القراح .

٣ — انقطع عن شرب الماء في الأكل بنصف ساعة ، حتى تعد الجهاز الهضمي للاحساس الطبيعي للجوع .

٤ — اشرب كوبة قليلة جداً من الماء في نهاية الأكل ، حتى تليين الكتلة الغذائية .

٥ — اذا شربت الماء مصه كما يشرب الطفل لبن أمه ، واحفظ الماء قليلا في فمك وأنت تشربه .

٦ — اشرب بكثرة ، ولكن كميات قليلة في كل مرة ، وضع في محل عملك ، وفي مكتبك ابريق ماء واشرب كوباً منه بين الفينة والأخرى ، وعود نفسك أن تشرب دون أن تحس العطش .

٧ — اشرب قسماً من الماء قبل أن تنام .

اتبع هذا النظام شتاء وصيفاً ، فلا يصيبك على الاطلاق نصب في المفاصل ، ولا حصى في الدم ، ولا اسلام ، ولا حصوات في الكلى ، أو في غيرها ، ولا امساك ، وما تترتب عليه من أمراض مختلفة عديدة . ولقد سئلت مرة من رجال الصحافة بلندن الانكليزية كيف كنت بها أحاول عبور الفاتيكان عن سر صحتي ، فأجبت « انه من شرب الماء » . فكيف تشرب الماء ، وبأي تشربه ، لعل من شئون الصحة ، تعلمه عما بينته لك . واذا ذكرت لك الماء كشراب ، فانه لا ينبغي ذكره لك ، كأداة لتنظيف جسمك . عليك بالوضوء والاستحمام كي يبقى جسمك صحيحا قويا ، لا يعرض غير مرضة الموت .

نعمي عطا الله